

بيتر فورسكال

الشباب المستفز ورائد الحريات المغمور

د. همدان زيد دماج

لم يعيش عالم النبات، والمفكر السويدي، بيتر فورسكال طويلاً؛ لكن حياته القصيرة كانت حافلة بالإنجازات العلمية والفكرية، وبالمغامرات والتجارب الرائدة. حياةً عنوانها النبوغ والتحدي الخلاق لا يمكن إلا أن تثير كل معاني التقدير والإعجاب. قبل أكثر من مئتين وخمسين عاماً، وبعد أيام من معاناته من الحمى، مات فورسكال، وهو لم يكمل عامه الثالث والثلاثين، في منزل عتيق في مدينة صغيرة تُسمى «يريم»، في وسط اليمين. مات حزيناً دون أن يعرف أن العالم سيدتفل به يوماً ما كرائد للحريات المدنية في أوروبا، وأن فصائل من النبات ستحمل اسمه إلى أبد الآبدين. كان فورسكال طالباً موهوباً، ذا معرفة واسعة؛ لكنه كان ذا شخصية عنيدة، وكان من السهل أن يُستفز، ولهذا عندما أراد أستاذه لينيوس، عالم النبات المشهور، إطلاق اسم فورسكال على أحد النباتات لم يجد أفضل من النبات الإبري القارض، الذي يُعرف اليوم علمياً بـ«فورسكاليا تيناسيميما»؛ ليس لأن هذا النوع من النبات الذي زرعه لينيوس في حديقة منزله في «أوبسالد» نشأ من البذور التي أرسلها فورسكال من رحلته الاستكشافية إلى الجزيرة العربية فحسب، بل ولأن «لمس نبات إبري قارض هو أمرٌ محفوفٌ بالمخاطر مثل الدخول في شجار مع فورسكال» حسب قول لينيوس. شخصية فورسكال هذه هي التي جعلته يقف متحدياً أمام من عارضوا أفكاره المتقدمة حول الحريات المدنية، التي نشرها عنوة في كتابه «أفكار حول الحرية المدنية»، وهي التي جعلته يحتمل كل الصعوبات والتحديات التي واجهته أثناء وجوده في البعثة الاستكشافية إلى الوطن العربي، التي انطلقت عام 1761.

نقبت في آثاره الفكرية وكرسته كواحد من رواد الحريات المدنية في أوروبا والعالم خلال القرن الثامن عشر.

في القاهرة، أقام مكتب اليونسكو، عام 2011، حلقة نقاش حول حرية الصحافة وحرية التعبير، احتفاءً بالترجمة العربية لكتاب فورسكال، على هامش الذكرى الـ250 لانطلاق البعثة الاستكشافية التي احتفلت بها الدنمارك رسمياً، حيث تم عقد سلسلة من المحاضرات العلمية في جميع أنحاء البلاد، كما تم إصدار طوابع بريدية خاصة مستوحاة من تفاصيل البعثة.

وهكذا لم يعد فورسكال عالماً ومفكراً



بيتر فورسكال

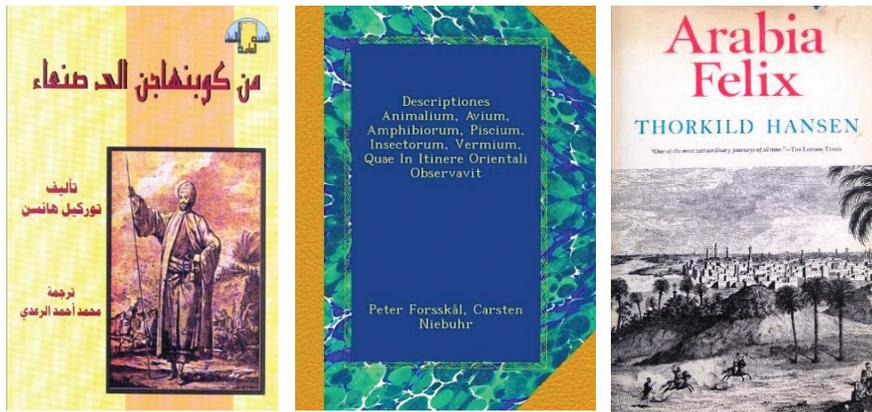
الحرية المدنية» عام 1970. ومنذ ذلك الوقت عُقد العديد من المؤتمرات والندوات العلمية التي

العالم يتذكر فورسكال

ظلت اكتشافات فورسكال حتى القرن التاسع عشر تمثل أهم مصادر المعرفة عن الحياة الحيوانية والنباتية في جنوب الجزيرة العربية، هذا على الرغم من أن معظم اكتشافاته النباتية الأخرى ظلت طي النسيان حتى تم الاعتراف بها عام 1920. ولا تزال المجموعة النباتية التي جمعها خلال البعثة الاستكشافية من أهم وأكبر الكنوز المحفوظة بمتحف النباتات في كوبنهاجن.

غير أن العالم بدأ يتذكر فورسكال مرة أخرى بعد عقود من الغياب. كان هذا عندما تمت إعادة طبع كتابه المهم «أفكار حول

العالم بدأ يتذكر فورسكال مرة أخرى بعد عقود من الغياب. كان هذا عندما تم إعادة طبع كتابه المهم «أفكار حول الحرية المدنية» عام 1970. ومنذ ذلك الوقت عُقد العديد من المؤتمرات والندوات العلمية التي نقبت في آثاره الفكرية وكرسته كواحد من رواد الحريات المدنية



العربية السعيدة توركيل هانسن كتاب فورسكال التي اصدرها نيبور من كوبنهاجن إلى صنعاء

الفلسفة واللغات الشرقية على يد المستشرق البروفيسور ج. ميخائليس. وعلى الرغم من أن دراساته اتجهت بشكل متزايد نحو الفلسفة فإنه ظل على تواصل دائم مع أستاذه لينبوس في «أوبسالا»، وكان يزوده بالبذور والحشرات التي كان يطلبها. في عام 1756 دافع عن أطروحته المعنونة بـ«شكوك بشأن مبادئ الفلسفة المعاصرة». كان أساتذته معجبين بدقته؛ غير أنهم كانوا يعتقدون أنه ذهب بعيداً فيما يتعلق بموقفه من مبدأ الشك. في المقابل كان فورسكال يؤمن بأهمية أطروحته ومعتداً بها؛ حتى إنه قام بعد أربع سنوات بنشر طبعة جديدة منها في كوبنهاغن، مع مقدمة جديدة كتب فيها ما يلي: «اعتدتُ، بناءً على مشورة والدي، على إجراء دراساتي العلمية بمحاولة دحض وتفنيدي كل شيء ثم القيام بكتابة المبررات والتفسيرات التي تسنى لي معرفتها.

إضافة إلى دراسة اللغتين العربية والعبرية. كان هذا الجمع بين اللاهوت وعلم النبات مناسباً لاهتماماته، خاصة أن أحد معلميه، ويدعى أولوف سيلسيس، كان قد اشتهر بقيامة بدراسات مهمة على نباتات الكتاب المقدس. ولهذا لم يكن مستغرباً أن تكون دراسة النباتات المذكورة في الكتاب المقدس واحدة من المهام الرئيسية التي اضطلع بها فورسكال خلال تواجده في البعثة الاستكشافية الشهيرة إلى الوطن العربي.

بعد سنتين من تواجده في جامعة «أوبسالا» انتقل فورسكال إلى جامعة «غوتنغن»، والتي كانت حينها تقع في مملكة «هانوفر» التي كانت آنذاك على علاقة باتحاد خاص مع مملكة بريطانيا العظمى. في جامعة «غوتنغن»، المتأثرة بشكل ملحوظ بالثقافة البريطانية، استمر فورسكال في دراسة اللاهوت، كما درس

مغموراً، بل أصبح موروثه العلمي والفكري وتفاصيل حياته الغنية بالأحداث محل اهتمام الدارسين والمتخصصين في شتى أقطار العالم. مؤخراً، وعلى هامش ندوة «العربية السعيدة: نيبور وفورسكال والرحلة العلمية إلى الجزيرة العربية» (1)، التي عقدت في نوفمبر 2015، تم، في مدينة «غوتنغن» شمالي ألمانيا، الاحتفاء بوضع الشارة الرخامية لاسم فورسكال على جدران المنزل الذي عاش فيه خلال دراسته الجامعية هناك.

طفولته ونشأته

ولد بيتر فورسكال في 11 يناير عام 1732 في مدينة هلسنكي، التي كانت حينها تتبع السويد، وعاش طفولته فيها. وعلى الرغم من أن والدته توفيت عندما كان في الثالثة، وكونه تربي مع شقيقين وأخت واحدة على يد زوجة أبيه؛ إلا أن طفولته كانت سعيدة. كان والده كاهناً؛ ولهذا كان مقدراً لفورسكال أن يصبح رجل دين؛ إلا أن اهتمامات أخرى جذبت انتباهه، على الرغم من دراسته اللاهوت في جامعة أوبسالا، التي التحق بها وهو في العاشرة من العمر. يشير توماس فون فايسك (2) إلى أن دخول فورسكال الجامعة وهو في العاشرة لم يكن مستغرباً آنذاك؛ إذ إن أكثر من ثلث طلاب الجامعة كانوا تحت سن الخامسة عشرة. لم يمكث فورسكال في أوبسالا خلال تلك الفترة كثيراً، فغادرها ليتلقى على يد والده تعليماً خاصاً في اللاتينية واليونانية، قبل أن يعود إليها مرة أخرى عام 1751 وقد أصبح في الثامنة عشرة، لتبدأ قصة حياة أكاديمية غاية في التنوع والإبهار.

اهتمامات ومعارف متعددة

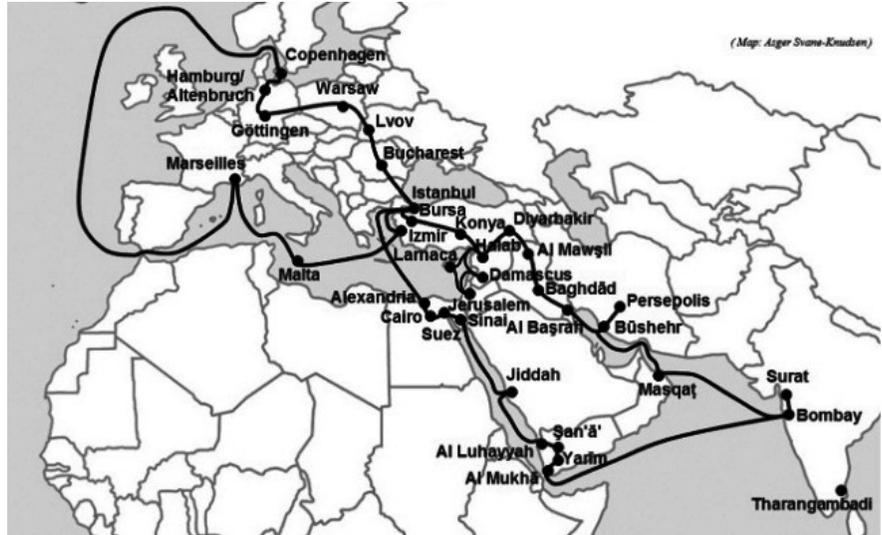
في أوبسالا بدأ فورسكال في دراسة اللاهوت؛ لكن سرعان ما اهتم بعلم النبات، وعمل عن قرب مع عالم النبات الشهير لينبوس،

الذي وصفه بـ«العلم الحر والمفيد، والذي تتعدد استخداماته في كل مكان»، كما جاء في رسالة كتبها إلى البرفيسور ميخاليس، أستاذه في «غوتنغن». غير أن محاولته لتعيينه محاضراً في الاقتصاد باءت بالفشل، بعد أن ذكر أستاذ الاقتصاد في أوبسالا، أندرس بيرتش، في تقريره، أن فورسكال لم يكن مؤهلاً لشغل المنصب وأنه كان في الأساس أكثر اهتماماً بعلم النبات.

بعدها بثلاث سنوات طلب فورسكال الإذن للدفاع عن أطروحة كتبها في الاقتصاد بعنوان «عن زراعة المروج»؛ لكن طلبه رُفض، فقرر أن يتحول إلى موضوع آخر كان قد شُغف به أيضاً، ألا وهو «علم القانون». في العام نفسه تم، في كلية الفلسفة، الإعلان عن أطروحته المعنونة بـ«أفكار حول الحرية المدنية»، التي كتبها في عشر صفحات باللغتين السويدية واللاتينية، وهو الأمر الذي لم يكن مألوفاً من قبل.

كان لفورسكال منهج خاص للتعاطي مع مبادئ حقوق الإنسان، وتطرق إلى قضايا خلافية حساسة، مثل قضية الامتيازات التي كانت تمنح للنبلاء ورجال الدين. كانت استقلالية الفرد بالنسبة له لا يمكن أن تتحقق إلا عندما تكون حقوقه مضمونة. وكان يرى أن هذه الامتيازات هي التي تؤثر في تقليص حقوق الآخرين، مبيناً أنه «يجب أن يكون لكل شخص حصة معقولة من الأعباء العامة كما من المزايا والمنافع»(5).

رفضت الكلية طلب فورسكال طباعة الأطروحة؛ غير أنه قرر اللجوء إلى حكومة الدولة، من خلال مجلس العدلية؛ لكن طلبه رُفض هناك أيضاً. حينها اتخذ قراراً شجاعاً بطباعة الأطروحة وتوزيعها على الجمهور العام، متجاهلاً بذلك الوسط الأكاديمي. كان على المطبعة قبل أن توافق على طباعة الكتاب أن تحصل على إذن مسبق من الرقيب المعتمد



خط سير البعثة الاستكشافية للعربية السعيدة



اللوحه الرخامية في مكان سكنه في مدينة غوتنغن



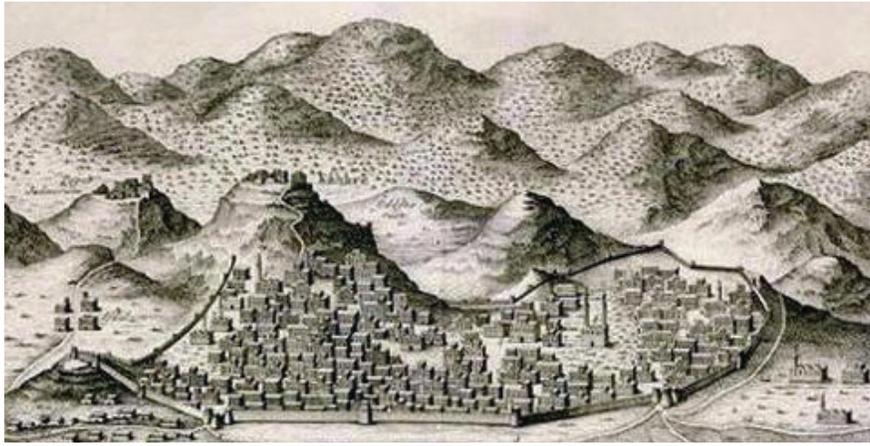
شارع باسمه في استكهولم

كانت بيئة البحث غير المتحفظة في «غوتنغن»، ومناخ الحرية، هو ما افتقده فورسكال كثيراً عندما عاد إلى السويد أواخر خريف 1756، بعد انتهاء منحه الدراسية. ولكي يعيل نفسه عمل مدرساً خصوصياً للكونت يوهان غوستاف هورن، ابن الثالثة عشرة حينها، كما قام بتدريس الكيمياء وأبدى اهتماماً كبيراً بالزراعة.

لم يكن فورسكال منظرًا بمعنى الكلمة، على الرغم من نجاحه كفيلسوف وتعيينه عضواً في أكاديمية العلوم في «غوتنغن». ففي تلك الفترة أظهر اهتماماً كبيراً بدراسة الاقتصاد،

كانت النتيجة أن بدأت الشكوك تظهر من لقاء نفسها، بعد أن كنتُ أسعى إليها»(3). تأثر فورسكال كثيراً بأفكار الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم بعد أن قرأ أعماله في ترجمتها الألمانية. وكان موقفهما العملي من الفلسفة من بين الأشياء التي جمعتهم؛ فكلاهما عبّر عن استنكاره من العلماء الذين يدفنون أنفسهم في نظرياتهم، والذين «لم يستعينوا بالتجربة في أي من استنتاجاتهم... تلك التجربة، التي لا يمكن الحصول عليها إلا في الحياة العامة وفي الحوارات والحديث مع الآخرين»(4).

يحتوي كتاب «أفكار حول الحرية المدنية»، الصادر في نهاية خريف 1759، على أربع وعشرين مقالة تضمنت نقداً صريحاً للوجهاء من أصحاب المناصب والأموال، «الذين زادت سطوتهم على البلاد، واستغلوا نفوذهم في سبيل الحصول على الامتيازات على حساب الشعب»



مدينة تعز

فورسكال في كتابه هذا بسيطة على الإطلاق؛ فقد طالب بالحق في التظلم والاستئناف ضد الأحكام المشكوك فيها، كما أراد فرض ضرائب أكثر عدلاً، وطالب بوضوح بإلغاء امتيازات النبلاء في الحصول على الوظائف العليا، وبإصلاح نظام نقابة التجار والصناع، وإنشاء المدارس للأطفال من الطبقات الشعبية. كما أراد أيضاً زيادة حرية التعبير والشفافية العامة، بالإضافة إلى مطالبته بعدم حجب كل ما يخص «المنافع العامة» عن «عيون المواطنين».

لا شك أن المطالب التي تضمنها الكتاب، حتى بعد تعديلات الرقيب، كانت مدهشة حقاً؛ خاصة إذا عرفنا أنها هي نفسها المطالب والحقوق التي تضمنها الإعلان الفرنسي العالمي لحقوق الإنسان والمواطن الذي صدر بعد 30 عاماً(6).

المطبوعة. الرقيب أولرايش أفاد بأنه لم يكن يعرف أن الكتاب الذي أجازه سيكون مطابقاً لأطروحة فورسكال الممنوعة. أما فورسكال فقد أوضح أنه، وبمساعدة الرقيب، قام بحذف جميع النقاط السياسية الحساسة، وأن الكتاب، بناء على ذلك، يُعتبر نصاً مختلفاً تماماً عن ذلك الذي تم فحصه والاعتراض عليه في وقت سابق.

قرر مجلس العدلية مصادرة جميع نسخ الكتاب، وأصدر تحذيراً لفورسكال، كما قام بفصل الرقيب أولرايش. عندما تم تفتيش منزل فورسكال لم يتم العثور على أي نسخة من الكتاب، ومن إجمالي 500 نسخة مطبوعة لم يتم مصادرة سوى 79 فقط تم حرقها. أما بقية النسخ فقد استطاع فورسكال توزيعها على المهتمين وطلاب الجامعة، كما تم إعادة نسخ المخطوطة الأصلية أكثر من مرة.

لم تكن الإصلاحات التي نادى بها

في المملكة آنذاك، السيد نيكولاس أولرايش، الذي فرض على فورسكال القيام بالكثير من التعديلات وحذف بعض العبارات من النص قبل إعطائه رخصة النشر، خاصة تلك التي تتعلق بالمطالب الجذرية لحرية الصحافة والطباعة أو تلك التي تتعرض إلى الوضع السياسي آنذاك.

أفكار حول الحرية المدنية

يشير فون فايساك إلى أن حصول فورسكال آنذاك على الإذن بطباعة الكتاب يثير الاستغراب؛ فالرقيب أولرايش كان معروفاً بتشدده ضد الحريات الصحفية، مضيفاً أن صاحب المطبعة التي طبعت الكتاب، ويدعى لارس سالففيوس، كان متواطئاً دون شك مع فورسكال في طباعة الكتاب؛ فسالففيوس نفسه في كتاب نشره قبل أعوام كان قد تطرق إلى العديد من القضايا التي تعاطى معها فورسكال، إضافة إلى كونه وفورسكال كانا يُعتبران ضمن المجددين الراديكاليين السويديين القادمين من الجزء الفنلندي للمملكة آنذاك.

كان فورسكال يعرف المخاطر التي ينطوي عليها نشر كتابه؛ فقبل عشرة أعوام خُصم راتب يوهان إهري، أحد أساتذة أوبسالا، لمدة عام كامل بسبب إجازته لأطروحتين باللغة اللاتينية عن الحكومة المدنية، كما تم منع سالففيوس من نشرهما على الرغم من أن الرقيب كان قد أجازهما. ومع هذا أقدم فورسكال على طباعة كتابه آملاً أن يكون نطاق حرية الرأي قد تحسن منذ ذلك الحين.

في اليوم نفسه الذي طُبِع فيه كتاب «أفكار حول الحرية المدنية»، دعا مجلس العدلية إلى اجتماع لمناقشة الأمر، واستدعي سالففيوس، الذي قام بعرض مخطوطة الكتاب على المجلس وعليها ترخيص الرقيب أولرايش، موضحاً أن فورسكال كان قد أخذ كل نسخ الكتاب

قد انتهت في السويد آنذاك، فإن آراء فورسكال حول الحريات المدنية، ومطالبته بحق العامة في التعبير عن آرائهم بحرية، ومشاركتهم للسلطة والثروة، أحدثت الكثير من الجدل، فتم إخضاعه لتحقيق مشدد. لم يستسلم فورسكال للتهديد، فقام بمراسلة الملك «أدولف فريدريك» مباشرة، شاكياً ما حدث من أمر الكتاب وحرقت نسخته؛ إلا أن الملك أصدر توبيخاً شديداً للهجة، الأمر الذي ربما لم يترك لفورسكال من خيار سوى الرضوخ، وربما الهروب المؤقت، عبر قبوله العرض المقدم له للالتحاق بالبعثة الاستكشافية العلمية الشهيرة إلى الوطن العربي مع مجموعة من العلماء والمتخصصين.



نيبور بالملابس اليمنية



صياد عربي

البعثة الاستكشافية إلى العربية السعيدة تعد البعثة الاستكشافية الملكية الدنماركية إلى العالم العربي عام 1761، والتي أمر بها الملك فريدريك الخامس، واحدة من أهم البعثات الاستكشافية العلمية إلى الوطن العربي في القرن الثامن عشر؛ فقد كان الملك يرى في تلك البعثة فرصته الفريدة لتحقيق انتصارات علمية عظيمة تُكسبه شعبية كبيرة في حياته وتخلد ذكراه إلى الأبد. هدفت البعثة إلى الحصول على معلومات جديدة ودقيقة عن التاريخ والجغرافيا في المنطقة العربية، فما كان متاحاً في ذلك الوقت من معلومات عن هذا الجزء من العالم كان عشوائياً وغير دقيق. كما هدفت إلى الاطلاع على النقوش والكتابات والمخطوطات، ودراسة الأزهار والنباتات والحيوانات التي تعيش في المنطقة العربية، والاندماج في حياة العرب اليومية والتعرف إلى عاداتهم وتقاليدهم وفنون العمارة العربية.

استمرت البعثة ستة أعوام، وتنقلت بين عديد من الدول، منها: تركيا، مصر، اليمن، الهند، إيران، والعراق. تألف طاقم البعثة من ستة متخصصين، منهم: عالم الفيزياء والرياضيات

الحر السماح بحرية المساهمة في بناء ورفاهية المجتمع»، وهو الأمر الذي لن يتحقق إلا عندما تصبح «شؤون الدولة معروفة للجميع»، وعندما «يكون ممكناً للجميع التعبير عن رأيهم حولها بحرية»، موضحاً أنه «عندما لا يكون هذا الأمر متاحاً لا تستحق الحرية اسمها».

في إحدى مقالات الكتاب يبين فورسكال أن حرية التعبير لا يمكن أن تضر كثيراً بـ«الوحي الإلهي، والقوانين الأساسية الحكيمة، أو شرف الأفراد؛ لأن الحقيقة تنتصر دائماً، سواء تم إنكارها أم الدفاع عنها». كما نادى في مقالة أخرى بحرية التعليم الذي «ينبغي أن يكون مفتوحاً للجميع»، مشدداً على أهمية الاهتمام بالمدارس العامة التي من شأنها تعزيز المهارات وحريتها بحيث يمكن أن يحصل الفرد على تعليم كامل». غير أن المقالة التاسعة من كتابه كانت هي الأكثر تحدياً للسلطات آنذاك، حيث نصت على أن حرية الصحافة والطباعة هي البديل الوحيد للعنف، وأن «من شأن الحكومة الحكيمة أن تدع رعاياها يعبرون عن استيائهم بواسطة الأقلام بدلاً من البنادق». وعلى الرغم من أن الملكية المطلقة كانت

الحرية أغلى ما يملكه الإنسان

يحتوي كتاب «أفكار حول الحرية المدنية»، الصادر في نهاية خريف 1759، على أربع وعشرين مقالة تضمنت نقداً صريحاً للوجهاء من أصحاب المناصب والأموال، «الذين زادت سطوتهم على البلاد، واستغلوا نفوذهم في سبيل الحصول على الامتيازات على حساب الشعب»، داعياً بوضوح إلى حرية الرأي والصحافة، «التي يستطيع الشعب من خلالها أن يعبر عن كل ما يصيبه من ظلم وجور».

كتب فورسكال أيضاً أن الحرية المدنية لا تكون حقيقية إلا عندما تُمنح «لكل فرد من أفراد المجتمع» من أجل إفادة نفسه وعدم إلحاق الضرر بالآخرين، مبيناً أن «أعز وأغلى ما يملكه الإنسان بعد حياته هي حريته، وأن الخطر الأكبر الذي يهدد هذه الحرية يأتي دائماً من أولئك الأكثر نفوذاً وقوة في البلاد، من خلال مناصبهم أو مراكزهم الاجتماعية أو ثروتهم»، مستنتجاً أن «حياة وقوة الحرية المدنية تتمثل في حكومة محدودة، وحرية غير محدودة للكلمة المكتوبة». وحول أهمية الشفافية في الحكم يضيف قائلاً: «من الحقوق المهمة في المجتمع

لا شك أن النظرة المتعمقة في حياة بيتر فورسكال القصيرة تجعلنا نتخيل حجم الإنجازات التي كان سيتركها لو قدر له أن يعيش طويلاً. ربما كان سيشعر بالسعادة الغامرة لو أنه عرف بقرار رفع الرقابة عن الصحافة نهائياً، وأن التاريخ المعاصر سيتذكره كأحد رواد الحرية في السويد

العربية، إضافة إلى جمع عينات مادية منها للاستخدام العلمي من أولويات أهداف البعثة. اعتمد فورسكال على طريقة علمية متميزة قام بتطويرها أستاذه لينبوس، وتمكن من جمع ما يقارب 900 نوع من النباتات المختلفة وتدوين أسمائها العربية. كما قام بجمع عينات حيوانية كثيرة وضعت جميعها في سبعة صناديق خشبية كبيرة استطاع نيبور أن يرسل بعضها إلى كوبنهاجن؛ إلا أنها أهملت لسنوات، وعندما فُتحت كان جزءٌ كبيرٌ منها قد فسد وتلف.

بعد سنوات من عودته تمكن نيبور من تجميع مذكرات وملاحظات فورسكال التي ملأت 1800 قصاصة ورقية، وقام بنشرها عام 1776 في عدة كتب، منها كتاب «دراسات على الحيوانات والنباتات المصرية والعربية»، وكتاب «وصف عالم الحيوان». استطاع فورسكال خلال البعثة اكتشاف فصائل جديدة من الحيوانات المائية الهلامية المعروفة باسم «سالبر»، وأنواع جديدة أخرى من الأسماك وهلاميات البحر. كما دُوّن أكثر من 26 نوعاً من الشعب المرجانية و17 نوعاً من الطيور وأكثر من 62 نوعاً من الحشرات. ولعقود طويلة احتفل المهتمون بعالم الحيوان والنبات من داخل وخارج الدنمارك بهذه الاكتشافات.

كان فورسكال خلال البعثة نشيطاً ومتوقداً، وعاش خلال سنواتها مغامرات وأحداثاً ومواقف غنية، وأثبت رباطة جأش عالية وشجاعة بطولية كانت سبباً في إنقاذ البعثة في أكثر من موقف. كتب أستاذه في «غوتنغن»، البرفيسور ميخاليس، عن دوره في البعثة قائلاً: «يمكن القول بأنه ولد لكي يكون في البعثة الاستكشافية، فلم يكن ينزعج إذا ما غابت أو قلت سبل ووسائل الراحة، فقد كان صبوراً واعتاد على نمط الحياة العربية بسرعة كبيرة، وعاش حسب تقاليدها، وهذا



النبات الإبري القارض المعروف علمياً بفورسكاليا تيناسيميا

ومنها الكتابة المسماية. وقد تعاقبت أجيال من العلماء على المواد التي جمعتها البعثة، والتي لا تزال مصدراً لاكتشافات جديدة تحدث كل يوم.

وسوف نتعرض إلى وقائع البعثة الاستكشافية بالمزيد من التفصيل في مقالة أخرى، لما احتوته البعثة من استكشافات متعددة وأحداث درامية مثيرة، والتي ذكر بعضها الكاتب الدنماركي توركيل هانسن، في كتابه الممتع «من كوبنهاجن إلى صنعاء» (7).

إنجازات فورسكال خلال البعثة

كانت إسهامات فورسكال في البعثة الاستكشافية رئيسية ومتعددة؛ فقد كانت دراسة النباتات والحيوانات في المنطقة

كارستن نيبور (الذي أوكلت إليه مهمة رسم الخرائط والأمور المالية)، وعالم اللغة والخبير في الكتابات القديمة فريدريك فون هافن، إلى جانب آخرين. أما فورسكال فقد أوكلت إليه مهمة جمع الوثائق والعينات اللازمة عن كل ما يخص عالم الحيوان والنبات في المنطقة. للأسف لم يستطع أحد من أعضاء البعثة العودة إلى ديارهم، وماتوا جميعاً ما عدا نيبور، الذي عاد إلى كوبنهاجن وكان له الفضل في المحافظة على تاريخ وإنجازات البعثة المبهرة، والتي كان منها رسم أول خريطة دقيقة للبلاد العربية، واكتشاف وتدوين العديد من نباتاتها وحيواناتها، إضافة إلى الرسومات الدقيقة لأطلال المدن القديمة التي ساعدت الباحثين فيما بعد على فك رموز الكتابات الشرقية،



لوحة فورسكال مع القبائل العربية



طابع بريد فنلندي احتفاءً بفورسكال

وفي أوروبا، وكأحد أهم علماء النبات أيضاً. لقد استطاع عالم النبات، ورائد الحريات المدنية، إنجاز الكثير خلال عمر قصير، ليس على المستوى الفكري والعلمي فقط؛ ولكن على المستوى الشخصي أيضاً. وإذا كانت هذه الشخصية العبقريّة الفذة والملهمة لم تحظ بالاهتمام الكافي من قبل الدارسين والمهتمين في العالم إلا مؤخراً، فإنها لا تزال للأسف شبه مجهولة في الوطن العربي، الذي عاش فورسكال سنواته الأخيرة في ربوعه، وتحدث لغته، واكتشف ودون العديد من نباتاته وحيواناته، ومات شاباً في إحدى مدنه الصغيرة.

مصادر:

- (1) موقع جامعة غوتنغن: uni-goettingen.de
- (2) توماس فون فايساك: «تعقيب حول أفكار حول الحرية المدنية»، موقع الحرية المدنية، موقع مشروع بيتر فورسكال العالمي (peterforsskal.com).
- (3) نفسه.
- (4) ديفيد هيوم: «في كتابه المقالات»، الجزء الثالث، 1741.
- (5) بيتر فورسكال: «أفكار حول الحرية المدنية»، موقع مشروع بيتر فورسكال العالمي (peterforsskal.com).
- (6) Déclaration des droits de l'homme et du citoyen. August 1789
- (7) توركيل هانسن: من كوبنهاجن إلى صنعاء، ترجمة: محمد أحمد الرعدي، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، 2011.
- (8) توماس فون فايساك، مصدر سابق.
- (9) همدان زيد دماج: جوهرة التعرّف، جائزة الشارقة للإبداع العربي 2015.
- (10) توركيل هانسن، مصدر سابق.

وبعد انتظار طويل، لم يأتوا. كان أفراد البعثة يخشون أن يهبط عليهم الليل وهم في عوارض الجبال الشاهقة، لذلك لم يجدوا من حل سوى ربط فورسكال على ظهر أحد الجمال، لتستأنف القافلة طريقها لتصل قبيل المغرب مدينة «يريم»، التي لم يصمد فيها فورسكال طويلاً، فمات في 11 يوليو 1763 دون أن يكمل عامه الثالث والثلاثين، ودون أن يعرف أن زملاءه لن يكون بإمكانهم تشييعه كما يجب، ولا أنه «سيدفن في حفرة في مكان قصي خارج المدينة، سينبشها اللصوص بعد يومين، ويكسرون التابوت، بحثاً عن كنز افترضوا وجوده فيه، ملقين بجثته في العراء» (9)، قبل أن يتدخل أعضاء البعثة لدى حاكم المدينة الذي أمر أحد الأهالي اليهود بإعادة الجثة إلى الحفرة ودفنها مقابل حصوله على التابوت الخشبي المكسور (10).

خاتمة

لا شك أن النظرة المتعمقة في حياة بيتر فورسكال القصيرة تجعلنا نتخيل حجم الإنجازات التي كان سيتركها لو قدر له أن يعيش طويلاً. ربما كان سيشعر بالسعادة الغامرة لو أنه عرف بقرار رفع الرقابة عن الصحافة نهائياً، وأن التاريخ المعاصر سيتذكره كأحد رواد الحرية في السويد، بل

أمرٌ ضروري إذا ما أراد الإنسان أن يتمتع بالسفر والتنقل في الأراضي العربية، وإلا فلم يكن أبرع العلماء ليستطيع أن يجد كل هذه الاكتشافات».

ظل فورسكال خلال سنوات البعثة الاستكشافية يتابع عبر رسائله المتبادلة مع أساتذته آخر تطورات حريات الصحافة والحقوق المدنية في بلاده، والتي كان يأمل أن تتحقق في فترة البرلمان التي كانت قد بدأت قبيل مغادرته؛ لكنه أصيب بخيبة أمل عندما عرف أن البرلمان قرر تأجيل هذه القضية إلى المستقبل. في رسالة متبادلة بين بعض طلابه خلال تلك الفترة كتب أحدهم: «إذا عاد فورسكال إلى الوطن فمن المرجح أن تبدأ الحرب من جديد، وبشكل أكثر ضراوة وتعطشاً». بعد سنوات عديدة عندما أصدر البرلمان أخيراً قانون حرية الصحافة والطباعة لم يكن فورسكال للأسف على قيد الحياة.

نهاية درامية

في العام الثالث من بدء البعثة الاستكشافية، وفي طريقها من مدينة «تعز» إلى «صنعاء»، أكد طبيب البعثة إصابة فورسكال بالمalaria. واصلت البعثة سيرها شمالاً نحو مدينة «إب»، بعد أن خصصوا حماراً لفورسكال تمدد جسده المنهك على ظهره، محاولاً دون جدوى أن يلحق بالجمال التي كانت تحمل بقية أعضاء البعثة ومعداتهم. خلال الرحلة اشتدت آلام فورسكال كثيراً، وأصبح وجهه مزرقاً، وقيئه يسيل على جوانب الحمار، مما اضطر البعثة إلى التوقف في قرية صغيرة، على أمل أن يسترد عافيته، قبل أن يواصلوا رحلتهم عبر منحدرات جبال «سُمارة» الشاهقة.

في صباح اليوم التالي أدركوا أنه لن يكون بمقدوره ركوب الحمار وحده، فاستأجروا بعض العمال من الأهالي لحمله؛ لكن هؤلاء،